# متى يفيق المصريون من غفلتهم التى طال أمدُها ... ومتى ينهضون من كبوتهم ويلحقوا بركب النهضة والتقدم والإزدهار ؟!

محمد سعد زغلول سالم

الأربعاء ٤ أكتوبر ٢٠١٧

لا يملك المُتأمل فى أحْوالِ مصر وفى سلوك الغالبية العُظمى من المصريين المعاصرين إلا أنْ يتساءلَ بدهشة وإستغراب ـ وفى حَسْرةٍ وحُزنٍ وألم إذا كان مصرياً ـ عما إذا كانَ المصريون حقاً لهم عقول فى الرؤوس إذا كان هذا هو مآلُهُم بعد بضعة آلاف من السنين ... فهل مِن المُمكن أو المقبول أو المعقول لشعبٍ له باعٌ ضاربٌ فى القِدمْ يكادُ لا ينافِسُه فى تاريخه الحضارى شعبٌ آخر أنْ يكونَ من أكثر شعوب العالم بجاحةً ووقاحَةً وفوضويةً وهمجيةً ؟؟؟ وأن يقبلَ أن يحيا فى بيئةٍ يأنفُ من العيشَ فيها بسبب قذارتها وتلوُّثها ـ اللذان يتسبب فيهما بسبب سلوكِه وعاداته المرذولة ـ الأسوياءُ من البشر ولربما البهائم أيضاً ؟؟؟ وأنْ يظل مُتغافِلاً عن الهوة السَحيقة التى تفصلُ بين واقِعِه الذى يحياه والمفروض الذى يجب أنْ يسْعَى إليه والتى تزدادُ إتساعاً مع مرور الزمن حتى أمْسَى الإنقراض الحضارى للمصريين أمراً يكادُ يكون مصيراً محتوماً لا فكاكَ لهم منه ... فتفسيرُ الإنحطاط والتدهور الحضارى لمصر والمصريين أمرٌ عسير لا سبيلَ إلى الإقتناع بأسبابه أو مُبرراتِه فى ضوء أحوال وتاريخ دولٍ أخرى عديدة كانت تحيا ظروفاً مُشابهة بل وأكثرَ سُوءاً ثم صارت دولاً متقدمة تنعمُ شعوبها بإزدهارٍ صنعوه لأنفسهم بعقولهم وجهودِهِم ... فحتى إذا ما غضَضْنا الطرف عن إيمانِ المصريين ظاهراً وشكلياً بدينٍ يجعل من النظافة والحَياءَ والنظام حتى فى كيفية تناول الطعام بعضاً من أركانِه ويجعل من مجرد التبسُم أو قول كلمة طيبة للغير من الناس صدقةً يُثابُ المرءُ عليها ناهيكَ عما للعِلْم وإتقان العَمَل والصِدْق فى القول والأمانة فى المُعامَلة من مكانةٍ سامِقَة بين ركائزه ... حتى إذا ما غَضَضنا البصرَ عن المرجعية الدينية الإسلامية لهذه الركائز الضرورية للحياة فإنها تظل بديهيات عقلية منطقية أخَذت بها الدول التى لأبنائها عقول فى الرؤوس ولا يجد المرءُ من مبرر لأن تظل بديهيات خافية عن أبصار المصريين وعن عقولهم ... وإذا كانت الأسبابُ الحقيقية لهذا الإنحطاط الحضارى لمصر وهذا التدنى السلوكى للمصريين ظاهرةً على مَرْأى من العِيان لكل من يفهَمُها أو يُدركها أو يَعيها فسوف يظل سبب قبول المصريين وخضوعِهِم وخنوعِهِم لها حتى الآن تساؤلاً مؤلماً حزيناً قائماً بغير إجابة أو تفسير.

ويُثيرُ هذا التناقض الشاذ بين التديُن الظاهرى للمصريين وسوءِ أخلاقِهِم التى يحيون بها والمفروض أن تكون إنعكاساً لهذا التديُن الحيرة والإستغراب ... وإذا كانت الغالبية العظمى ممن تصدوا لمحاولة تفسير هذا التناقض بمختلف توجهاتهم قد درجوا على إرجاعها إلى ثلاثية الفقر والجهل والمرض التى تمسك بخناق المصريين منذ قرون وهو تفسيرٌ صحيح إلى حد كبير إلا أنه يظل تفسيراً ناقصاً ماظلت الإجابة على تساؤل : ولماذا يقبل المصريون بعد كل هذا التاريخ أن يحيَوْا فى قبضة هذه القيود الثلاثة وهم قادرون على تحطيمها والإفلات من إسارِها وبناء حياة آدمية لائقة بهم كما ينبغى وكما يستحقون مثلما فعلت غالبية دول العالم الأخرى إجابةً غائبة ... والأمر ذاته منطبق على غياب إجابةٍ مقنعة ومقبولة لتساؤلٍ آخر أدْهَى من ذلك التساؤل وهو : لماذا يُقيد المصريين بهذه القيود ويقمعُ بها حقوقَهم الفطرية المشروعة ويمنعها عنهم مصريون آخرون أيضاً من بنى جلْدَتِهِم يحيون معهم فى نفس الوطن ولكنهم لا يتورعون عن الإستئثار بخيراته وثرواته ومقدراته لأنفسهم غير عابئين بمعاناة الآخرين ؟؟؟ أيكون السبب هو الجشع والطمع والأنانية ؟؟؟ أم ضعف وخنوع الآخرين وتخاذلهم عن نيل حقوقهم وإنتزاعِها منهم ؟؟؟ أم مشاعر الكِبْر والغرور التى تسيطر على النفوس الصغيرة والعقول الضئيلة وتبرر لهم شعورهم بالأفضلية وسلوكهم المرذول بتعاليهم على الآخرين ؟؟؟ وقد يكون تفسيرُ هذا السلوك بأنه ربما يمثل ردودَ إفعالٍ متمردة أو إنتقامية أو غاضبة أو رافضة لما يعانيه الغالبية العظمى من المصريين بسبب هذه القيود وعجزهم عن تحطيمها أو التصدى لمن كبلوهم بها صحيحاً أيضاً إلا أن معضلة إيمان المصريين شكلاً وظاهراً بالدين مع عدم إلتزامهم بأوامره ونواهيه فى سلوكياتهم وتصرفاتهم الفعلية تظَلُّ ظاهرة شاذة مستعصية على التبرير أو التفسير فى ضوء ما يرونه وما يجرى حولهم فى الدول الأخرى التى لا تلتزم شعوبها بشرائع أديانهم التى ينتسبون إليها ولكنها تجعل من ركائز الأخلاق بمعناها الشامل والتى يأمر بها الدينُ أيضاً طريقهم إلى التقدم والنهضة والإزدهار.

كما يثير هذا التناقض بين الإيمان الفطرى للغالبية العظمى من المصريين بأن الطريق الوحيد الصحيح للسعادة فى الحياة الذى حدده الله للإنسان والذى يصلح له سواء أكان فرداً أو مجتمعاً والمتمثل فى الآية الكريمة (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) وبين إلتفاتهم عن العمل بمقتضيات هذا الإيمان بل وتجاهلهم له فى حياتهم اليومية حتى صار طريقاً مهجوراً فى حياة الغالبية العظمى من المصريين لا يسلكونه إلا عند الضرورة تساؤلاتٍ باعثة للحزن والأسى لكل من يحاول تفسير هذا التناقض عندما يتساءل عما يحتاجُ إليه الفرد والمجتمع والشعب أكثر من الإلتزام بالعقل والعلم والعمل ليحقق إزدهاره ونهضته المادية ؟؟؟ وعما يحتاج إليه أكثر من الإلتزام بالشورى والعدل والأمن والحرية والمساواة ليحيا فى دولةٍ يأمن فيها على نفسه وعلى كل من يهمه أمره وعلى كل ما يمتلكه ؟؟؟ وعما يحتاج إليه أكثر من أن تكون علاقات البر والتكافل والرحمة والتسامح والإحسان هى سياق الحياة الإجتماعية التى يحيا فيها مع بقية أفراد المجتمع أو الشعب أو الدولة التى يحيا فيه ؟؟؟ ... فعسى أن يبدل اللهُ الحالَ الذى يحيا فيه ويعانى منه الغالبية العظمى من المصريين إلى ما يحبه ويرضاه ... ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعد.